الجوّانيّة .. مثاليّة متخلّفة !

بقلم عبد الله خيرت

لم تهدأ بعد المناقشات التي ثارت هذه الايام حول الفلسفة واهميتها ولزومها وضرورة توضيحها .. والاسئلة الكثيرة الملحة لا زالت تفرض نفسها : ما نوع الفلسفة التي تلائم الانسان العربي في هذه الفترة ؟ وماذا يصطحب ـ خلال رحلة تطوره المستمرة ـ من المبادىء والقيم وماذا يدع ؟ وماهي الافكار التي يخطط على هديها ارضه الجديدة التي يقف عليها اليوم ؟

وليست الفلسفة هي وحدها في الحقيقة التي يثور حولها الجدل ويحتدم النقاش ... فالقارىء العربي ـ وخاصة في مصر ـ لم ينس بعد معركة الشعر وآثارها ونتائجها .. وان كانت الخصومة حول الموضوع المعين وهو الشعر واختلاف وجهات النظر في شكله ومضمونه قد انقلبت الى سبب رخيص تافه واثارة احقاد شخصية وتسابق غريب ليس له ما يبرره الى النيل من كل الذين أثروا حياتنا الفكرية والفنية وأثروا فيها .. وكان طبيعيا ـ نتيجة للفهم الخاطىء والتسرع ومجالات النشر المفتوحة ـ ان يتناول السب والتهجم والسخرية كل انسان لا يتسم بضيق الافق والجمود والرجعية وان يشارك في هذه الحملة للاسف اناس لا يعرفون شيئا عن القضية التي تناقش وليس عندهم ما يقولونه فلا يجدون امامهم الا التجريح الشخصي وهو مركب سهل لا يعجز عنه احد .

لا بأس .. ان المناقشات والاسئلة والجدل واختلاف الرأي واعادة النظر في الموروث من قيمنا وافكارنا وادبنا شيء ضروري تحتمه ظروف هذه الفترة التي نعيشها .. فالمجتمع العربي يتطور وينمو ويزداد معرفة .. وازدياد المعرفة لا بد ان تسبقه عملية تفكير تتضمن اعادة نظر مستمرة في القديم وترك مستمر لهذا القديم او تركيبه في صورة جديدة .. والشيء الضروري كذلك ان يظهر في هذه الفترة اصحاب الاجابات المغلوطة سواء كانت مقصودة او غير مقصودة واصحاب الحلول الحالمة ومن يقبعون في الظل لا عمل لهم الا توزيع التهم على الناس وتقسيمهم الى ملونين وزنادقة وعدميين واصحاب شعر جديد وشيوعيين واما شئنا من الاسماء والصفات .

وهذا الكتاب (١) يبدو للوهلة الاولى وكأنه اجابة عن واحد من هذه الاسئلة الملحة : كأنه يقول هذه هي الفلسفة التي نبحث عنها وهذا هو التفكير الصحيح الذي يتفق مع ظروفنا واهدافنا .. يبدو هذا لانه يصدر والنقاش محتدم ولان مؤلفه متخصص ولان المؤلف قبل كل هذا يصر خلال صفحات الكتاب الكثيرة على انه يحمل الاجابة الصحيحة .. فالجوانية « فلسفة ثورة .. لانها نامية من اعماق هذه الامة الثائرة »(٢) . ورسالة الامة العربية رسالة جوانية(٣) . واغلب موضوعات الكتاب ترتبط بالاشتراكية والقومية والوحدة .. وهي القضايا التي تشغلنا هذه الايام .. ومن اجل ذلك نناقش افكار هذا الكتاب واهدافها ثم نرى بعد ذلك هل هذه هي الفلسفة التي نبحث عنها .. وقبل ذلك يحسن بنا ان نرى كيف يتلاءم الاسم الجديد مع هذه الفلسفة وينطبق عليها ...

١ ـ الجوانية واللغة :

يستعمل المؤلف كلمة « جواني » للدلالة على معاني الباطن والداخل والكامن والمستتر والجوهري والمثالي .. وذلك في مقابل كلمة « براني » التي تدل على المشاهد والحس والظاهر .. الخ . وحجة المؤلف في استخدام هذين اللفظين انهما عربيان .. فقد وردا اولا في حديث منسوب الى النبي نصه « روى الحارث الهمواني عن امير المؤمنين علي كرم الله وجهه قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا علي ما من عبد الا وله جواني وبراني يعني سريرة وعلانية .. فمن اصلح جوانيه اصلح الله برانيه .. ومن افسد جوانيه افسد الله برانيه »(٤) .. ووردا كذلك في لسان العرب والقاموس المحيط ومقدمة ابن خلدون.. ويقول المؤلف بعد ان يستخرج هذين اللفظين من القواميس وكتب الصوفية « واذا كان الامر كذلك فلا داعي هنالك للتحرج من استعمال هذين اللفظين على معنى الداخل والخارج وعلى المعاني الاخرى المتفرعة منهما »(٥) .. وهو يخشى ان يعترض عليه بعض القراء استخدامه لكلمة عامية فنراه يعود من جديد ليورد الادلة على عربية كلمة « جوانية » ويدفع هذا الاعتراض الذي تصوره .

ولكن المشكلة ليست هنا في الواقع .. فلا احد يسأل لماذا استعملت كلمة عامية بدل كلمة عربية .. وانما يسأل لماذا اخترت هذه الكلمة بالذات ؟ ما هو المعنى الجديد الذي افادنا اياه الاستعمال العامي ؟ ان الكاتب ـ وخاصة في الفلسفة التي يطلب فيها دائما تحديد الالفاظ وما يراد منها بغاية الدقة .. لا يلجأ الى استعمال الكلمات التي يمكن ان يحتج عليه في استعمالها الا اذا كانت هناك دوافع قوية تضطره الى ذلك .. وحين ننظر الى الدوافع التي من اجلها آثر المؤلف كلمة « جوانية » لا نجد دوافع على الاطلاق الا ان الكلمة عربية .. وهذه هي المشكلة .. اذ ان الكلمة انتقلت كما حدث لكثير من الفاظ اللغة من العربية الى العامية .. وهي الان عامية تاريخيا واستعمالا وايحاء ومعنى وان رقدت في قواميس اللغة القديمة .. وحينئذ يصبح نقلها الى العربية مرة اخرى خلطا وخطأ لاننا لن نجد لها بعد هذا النقل نفس المعنى الذي اكتسبته خلال تاريخها العامي الطويل .. وليس كل الكلام المنسوب الى النبي أو كل ما قاله العرب يجوز لنا الان استعماله دون تحرج .. والادلة على ذلك كثيرة نكتفي منها بكلمة وردت في حديث منسوب الى النبي كذلك هو حديث « ام زرع » .. تقول المرأة عن زوجها « زوجي ابو زرع .. فما ابو زرع؟ اناس من حلى اذني وملأ من شحم عضدي وبجحني فبجحت الى نفسي » (٦) فكلمة « بجح » التي اصبح لها الان معنى مختلف تماما عن المعنى القديم .. ولذلك فنحن الان لا نجد لها استعمالا عربيا وان كانت موجودة في معاجم اللغة ومنسوبة الى النبي .

ان النظر الى الفاظ اللغة كأشياء مجردة وعدم ربطها بتاريخها كما رأينا يوقع المؤلف في كثير من الاخطاء .. ففي الوقت الذي يقول فيه ان اللغة العربية لغة جوانية بطبيعتها(٧) نراه يورد الفاظا يقول انها جوانية ثم يقابلها بالفاظ اخرى عربية كذلك يقول انها برانية ..

---

(١) « الجوانية » للدكتور عثمان امين ، ٣٤٠ صفحة ـ القاهرة سنة ١٩٦٤ . (٢) الجوانية ص ١٠ . (٣) الجوانية ص ٢٦٦ .

(٤) الجوانية ص ٢٦٧ . (٥) الجوانية ص ٢٧٤ . (٦) صحيح البخاري ، حسن المعاشرة مع الاهل . (٧) الجوانية ص ١٧ .

ومن الالفاظ البرانية عنده لفظ « القوم » والقومية .. « فالقوم مجموعة من الناس ليس بينهم وحدة جوانية »(٨) ثم يوضح المؤلف تفسيره الغريب لهذه الكلمة بآيات من القرآن الكريم « قوم لا يعقلون .. قوم لا يهتدون » وبما ان الكفار والمشركين ليس بينهم وحدة جوانية اذن فكلمة « القوم » كلمة برانية .. والتعسف وحده والخلط وعدم الدقة هو الذي يقود الى هذه النتيجة الخاطئة .. ففي القرآن ايات كثيرة تصف القوم بالايمان والهدى فكيف ننفي عن المؤمنين كل وحدة وكل ترابط في الوقت الذي يقول فيه المؤلف ان الرابطة الدينية هي اقوى الروابط وابقاها ؟ والمؤلف وهو يفصل هذه الكلمة عن تاريخها وعصرها ينسى معنى القومية الذي نلتف اليوم حوله في كل اجزاء الوطن العربي ونحارب من اجل بقائه واستمراره .

ان الذي يدعو الى الدهشة حقا ان هذه النظرة الجزئية الضيقة تجد لها مؤيدين ودعاة .. فاذا كان الدكتور عثمان امين قد استخدم كلمة عربية لفظا عامية معنى واستعمالا وتاريخا فان بعض الكتاب يستخدمون كلمات لا دلالة لها مطلقا وليس لها معنى عامي او عربي حتى ليشك الانسان انهم يتوجهون بالحديث الينا .. هذه بداية مقال نشر حديثا انقلها بنصها وترتيبها « وايضا ليس حسنا بل قبيحا ان يتنفخ كاتب على قراء صحيفته او مجلته « تنفخ على وزن تكلم بكلام وتحزم بحزام » فيشد الزق على خصره » والزق : « القربة » ويضع مزماره في فمه ثم يمشي مختالا يحط قامته ويصعر خده ويشنق عنقه « اي يرميها الى الوراء مرفوعة » ويخرج صوره ويخطو على بساط الزهو والتعاظم نافخا شدقيه مرسلا هواء جوفه الى جوف قربته »(٩) والاقواس المفتوحة والمغلقة من وضع كاتب المقال .. والمقالات التي قبل هذا المقال وبعده مليئة بكلمات من هذا النوع « زواقيل . علوج . بربرة . ترترة . سمادير . شرلتان » فماذا يفيد القارىء العربي من هذه الكلمات التي استعملت في وقت معين ثم تجاوزتها اللغة لتواكب التقدم الحديث .. وماذا يجدي الان ان اعرف ان الزواقيل هم الفرس والعلوج هم الروم وتنفخ على وزن تكلم ؟ لا شك ان الكاتب المحقق هو الذي سيعلمنا ان البلاغة مراعاة مقتضى الحال وان لكل مقام مقالا وان خير الكلام ما كان في ظاهر لفظه .

فاللغة ـ وخاصة فكريا وفنيا ـ لا تستعمل كلماتها ومفرداتها اعتباطا او لمجرد ادعاء المهارة والابتكار بل لا بد ان تخضع لاختيار دقيق يفرضه طابع العصر والموضوع الذي نتحدث فيه والناس الذين نخاطبهم.. وبدون هذا الاختيار يصبح المجال متسعا للخلط والاضطراب وسوء الفهم .. فكلمة « الجوانية » ستترجم في ذهني الى المعنى العامي وهو معنى واسع غير محدد .. واذا تحدث المؤلف عن الصعيد « الجواني » كما فعل (١٠) فسوف يلتبس على الامر .. هل للصعيد الجواني علاقة بالفلسفة الجوانية ؟ وهل يمكن القول بناء على هذا ان الصعيد الجواني اكثر تقدما وحضارة من القاهرة أو الوجه البحري ؟

هكذا يتعسف المؤلف ـ وكلمة الجوانية ليست الا نموذجا ـ ويحمل اللغة اكثر مما تطيق ويتفنن في تخريج مفرداتها ويحيلنا الى آراء ابن جني والثعالبي وغيرهما من علماء اللغة .. وقد تصور ان هناك هجوما اخر على اللغة العربية فاكثر من استعمال افعل التفضيل فلغتنا « افضل واحسن وابقى واخلد لغة » .. ولكن لندع هذه المسألة فالكتاب ليس بحثا لغويا وانما هو كتاب يبشر بفلسفة جديدة .

٢ ـ الجوانية والفلسفة :

يقول المؤلف ان الجوانية فلسفة جديدة اهتدى اليها من تأمل روح الدين والاخلاق (١١) .. فاذا اردنا تعريفا لهذه الفلسفة مع انه لا يتحمس لفكرة التعريف هذه وجدنا انها « فلسفة تحاول ان ترى الاشخاص والاشياء رؤية روحية وان تبحث عن الداخل بعد ملاحظة الخارج وان تلتفت دائما الى المعنى والى الكيف والى القيمة والى الماهية والى الروح من وراء اللفظ والكم والمشاهد والعرض »(١٢)) ولكن لماذا لا نقف عند الظاهر ولا نلتفت اليه ؟ ذلك لان الاشياء الحسية كاذبة ناقصة بل ربما تكون غير موجودة على الاطلاق « فالحقيقة كامنة فيما وراء المحسوس وما وراء المحسوس معناه ما ليس مقيدا بقيود الزمان والمكان لان هذا او ذاك مرتبط بما هو محسوس ومجاوزة المحسوس في الزمان والمكان مجاوزة للنسبي والعياني واتجاه الى المطلق والكلي »(١٣) .

واضح ان هذه ليست فلسفة جديدة .. فهي نفسها مثالية افلاطون التي ترى ان عالم الاحلام والعقل هو الكامل منذ البداية اما عالم التجربة اليومية فناقص بل هو في بعض الاحيان غير حقيقي والاشياء التي يسميها معظم الناس اشياء هي مجرد اشباح(١٤) .. وترى انه « اذا كان لنا ان نعرف اي شيء معرفة مطلقة فعلينا ان نتحرر من الجسد وننظر الى الحقائق الواقعة بعين النفس فقط .. واثناء حياتنا سنكون اكثر اقترابا من المعرفة عندما نتجنب جهد طاقتنا الاتحاد او الاتصال بالجسد الا ما كان في غاية الضرورة وعندما لا تمسنا عدوى طبيعته وانما نظل متحررين منه حتى يحررنا الله ذاته»(١٥) وهي نفسها ثنائية ديكارت السلبية التي تقول ان الفكر والمادة شيئان مختلفان كل الاختلاف يمتاز الاول منهما دون غيره بصفة الفكر بينما يمتاز الثاني بصفة شغل حيز من المكان .. فالعلاقة بين الفكر والمادة مطابقة تماما لعلاقة الشبح في الالة(١٦) وارث هذه الفلسفة اليوم هو ما يلغط به السذج والمضللون والمخدوعون الذين فقدوا الامل في هذا العالم وواقعه ومعطياته الحسية واقتنعوا بانه لا جدوى من اصلاحه او التغلب على شره المقدر منذ الازل وانصرفوا عنه يحلمون بالوصول والاسرار المحجوبة والاتحاد بالكلي والمطلق والبحث عن سعادة اخرى لا تاتي ولن نراها الا اذا اسرفنا في تعذيب اجسامنا الغائبة بالحرمان والسلبية وادرنا ظهرنا لهذا العالم المليء بالرعب والانحلال .

انها اذن الفلسفة المثالية القديمة .. ولكن هذا ليس تعريفا صادقا لها فالحقيقة انها المثالية بوجهها السيء الشائه السلبي .. فبعض المثاليين كانوا يؤمنون بقبول الحقيقة المادية كنقطة بداية .. وديكارت آمن بأن مجموعة القوانين العلمية تشمل الجسم الانساني وفي الطب مثلا تصبح السيادة للعلة المادية والنتيجة المادية بدلا من الطاقات السحرية (١٧) وكان كانت يؤمن باننا لا ندرك الطبيعة بطريقة سلبية فالادراك دائما جزء من نشاط عملي اي اننا نتعلم ونعرف في اثناء الفعل والعمل (١٨) اما الفلسفة الجوانية فلها من هذه الاشياء موقف غريب .. انها « لا تعيش حياة الانسان الفكرية والعاملة بالمقاييس البرانية مقاييس الكم التي تقاس بها المادة والتي تطفيء جذوة الحياة الانسانية وتغرقها في لجة الحتمية .. كما انها لا تقنع بمناهج التحليل والحساب والاحصاء : ان هذه ان يسرت لنا ان نقف على الكم والمقدار فانها تعوقنا عن استكناه الفكر وسبر اغوار الكيف »(١٩) .

ووفق هذه النظرة لا يحق لنا ان نحصي المبالغ الطائلة التي كانت تدخل جيوب المستغلين لقناة السويس العربية ولا يجوز لنا ان ننخدع بضخامة هذه المبالغ ولا ان ننطلق من هذا الاحصاء الدقيق لنؤمم هذه القناة التي هي جزء من ارضنا .. ولا يحق لنا ان نجند المهندسين والخبراء ليحللوا ويحسبوا كم من الافدنة يمكن استصلاحها وكم قرية ستضاء وكم مصنعا سيقام اذا نحن حجزنا كمية المياه التي تضيع في البحر كل عام .. لا يحق لنا ان نفعل هذا لان مناهج التحليل والحساب

---

(٨) الجوانية ص ١٨ .
(٩) مجلة الرسالة ـ العدد ١٠٩١ . (١٠) الجوانية ص ٣١ .
(١١) الجوانية ص ٩ .
(١٢) الجوانية ص ١١٣ . (١٣) الجوانية ص ١٣٦ . (١٤) مدخل الى الفلسفة ـ جون لويس ـ ترجمة انور عبد الملك ص ٢٩ .
(١٥) العلم الاغريقي ب. فرانتين ـ ترجمة شكري سالم ج ١ ص ١٢٠ .
(١٦) مدخل الى الفلسفة ص ٩ . (١٧) المرجع السابق ص ١٠١ .
(١٨) المرجع السابق ص ١٥٤ . (١٩) الجوانية ص ١٢٤ .

والاحصاء « تطفىء جذوة الحياة الانسانية » .. ولكننا نعرف ان جذوة الحياة الانسانية لا تشتعل الا اذا زودت على الدوام بزيت من العلم والعمل والمصانع والحقول ولا يمكن الحصول على هذا الزيت الا اذا ابصرنا الاشياء الحسية وقومنا اعوجاجها والا اذا نفينا اللعنة الابدية التي ظللنا مدة طويلة نتصور انها كتبت علينا وحدنا .. اما ان يقال لنا ان هذه الجذوة تشتعل بالكسل و « الدردشة » والتشكك فهذا ما يجب ان نرفضه خاصة في هذا الوقت الذي بدأنا نبني حياتنا فيه على اساس علمي واضح .

ولا بد ان تصدق نتائج الفلسفات المتخلفة على الجوانية .. واهم هذه النتائج واخطرها ان ما تراه ليس هو الواقع فالواقع لا يرى بل يدرك بالنفس .. وجسمك هذا لا اهمية له فالوجود والاهمية للروح التي هي منفصلة عن الجسم ومنزهة عن كافة الاحوال والتقلبات التي تلم به .. ولذلك فالالم والمرض والفقر اشياء عرضية بل هي تعني تنمية الجانب الروحي في الانسان (٢٠) . وما دام الواقع والحق مستترا « جوانيا » فلكل انسان حقيقته .. وهي حقيقة خاصة به وحده لا تشبه حقائق الاخرين ولا تتفق معها ولا تلتقي بها .. وحينئذ فنحن في عصر ما قبل الفلسفة .. نحن ننتظر سقراط من جديد ليعلمنا ان هناك حقائق يمكن الاتفاق بشأنها وان السفسطة طريق خاطئة لانها توصل الى دروب فردية مظلمة .

والغريب حقا ان تحشد كل هذه الصفحات ـ باستثناء المائة صفحة الاولى والتي سأتعرض لها بعد قليل ـ لتشرح وتوضح ان : الصوم صومان .. والصدقة صدقتان .. والبر نوعان .. وان للانسان ظاهرا وباطنا .. وهي فكرة صغيرة هينة الشأن وفوق ذلك فهي ثابتة ومعروفة عند الناس جميعا وتشرحها وتوضحها كتب الوعظ والارشاد والخطب المنبرية .. وحتى هذه الكتب لم تعد تكتفي الان بان تقول بتجريد خالص كما فعل المؤلف « ان الشرف في التواضع والعز في التقوى والحرية في القناعة »(٢١) بل هي تربط هذه المعاني بحياة الناس وواقعهم .. ثم هي لا تدعي ان الوعظ والارشاد فلسفة جديدة جاءت لتحارب الفلسفات الاخرى وتهدمها وتقضي عليها .

٣ ـ البذور والثمار :

يخصص المؤلف اكثر من مائة صفحة في هذا الكتاب ليسرد لنا فيها احداث طفولته وصباه ويومياته التي كان يسجلها وهو طالب بالجامعة .. يفعل هذا ليحدد لنا نشوء نوازع الجوانية وقوة انطباعها في نفسه ثم اكتمالها اليوم مذهبا او فلسفة .. وحقا نحن بحاجة الى هذا الضوء الذي يكشف عن الافكار الاولى للفلاسفة ومن يبشرون بمذاهب جديدة حتى نربط بين افكارهم هذه وبين ما انتهوا اليه .. فنحن نعرف لماذا تتردد هذه النغمات الحزينة من اجل الانسان في كتابات البير كامو ولماذا يتعاطف معه في وحدته الابدية ويطلب له دائما الحرية والرحمة والعدالة حين نقف على اسرار طفولة كامو وصباه ونراه هناك في الجزائر يشهد الاضطهاد المستمر من جانب الفرنسيين للجزائريين .. وحين نسأل لماذا اعتبر كتاب احياء علوم الدين ذات يوم كتابا سياسيا وكان يحرق في المغرب ؟ تجيبنا على هذا السؤال معرفتنا بالغزالي الشاب الذي كبح جماح نفسه وانتصر عليها فامتنع عن التدريس حين احس انه سيصبح انسانا مزيفا يردد ما لا يؤمن به .. فلنحاول هنا ايضا ان نتلمس الجواب عن سؤالنا : كيف نبتت الفلسفة الجوانية وكيف اختارت من الفلسفات المثالية اسوأ ما فيها .

من المعروف اولا ان الكاتب لا يسرد من احداث حياته الا ما تهمنا معرفته بصورة مباشرة وما يتصل بالموضوع الذي نحن بصدده .. ففي حياة كل انسان اكل وشرب ونوم وتعليم واحلام وزواج ومشاكل عائلية .. ولكن هذه الاحداث لا قيمة لها اذا ذكرت لذاتها ولمجرد ملء الصفحات .. فالقارىء الذي يسأل عن بوادر الجوانية عند المؤلف لا يصح ان نرد عليه بأن المدرسة التي تعلم فيها الفيلسوف « كانت عبارة عن فصل واحد يشغل منظرة تقع على يسار الداخل الى منزل الصراف واسرته في درب الداوودية وكان اعضاء هيئة التدريس بها شخصا واحدا اسمه جورجي افندي قدم من الصعيد الجواني ليتولى وحده دون الاستعانة بغيره تعليم المواد لجميع التلاميذ » (٢٢) او نقول له « وانتقلت من المزغونة الى القاهرة فالتحقت اولا بمدرسة العاصمة الكبرى وكانت تقع على مقربة من باب الخلق ولم امكث بها الا قليلا ثم انتقلت الى مدرسة الهياتم بين الناصرية وحارة السقائين »(٢٣) فما قيمة كل هذه التفاصيل ؟ الواقع ان الكتاب يحتوي زيادة على ذلك مفارقات لفظية ونكت وحكايات عن المشايخ الذين كانوا يخطفون الفطير من التلاميذ .. وهذه الاحداث قد نستسيغها في كتاب الايام لطه حسين .. ولكنها غريبة جدا في كتاب فلسفي جاء يوضح « اصول عقيدة وفلسفة ثورة » .. ثم تأتي بعد ذلك « اليوميات الجوانية » فنجدها كلها تشترك في سمات اساسية تؤكد ما سبق ان قلناه هي الانعزال والفردية والانشغال بالهموم الشخصية والبعد عن كل تجربة فكرية كانت او عملية .. « اصابني من المضايقات في هذا الشهر اشكال والوان فمن ازمة مالية ترتبت على اختياري للاستقلال في الرأي الى أزمة نفسية مرجعها احساس بطغيان الظلم واقترافه باسم الدين .. أزعجتني فارة النجار ومطرقة الحداد ولولا ضيق الصدر واصفار اليد لغيرت المكان واسترحت من الجيران ودرست في اطمئنان »(٢٤) « ايام معدودات نقضيها على الارض وسنعود من حيث بدأنا ولا يبقى منا غير ذكرى وقد تغيب الذكرى في القبور كما تغيب الجسوم »(٢٥) وهذه اليوميات مكتوبة في سنة ١٩٢٩ فاذا وصلنا معه الى سنة ١٩٣٠ وجدنا كتاباته تتأجج نارا وسخطا وتبدو فيها الحدة والعنف .. وهذا شيء طبيعي فالغاء الدستور والحكومات الموالية للانجليز والامتيازات الاجنبية كل ذلك جعل الشباب المصري يتذمر ويصيح بما يمليه عليه احساسه الوطني ولو ادى به ذلك الى السجن او الموت .. ها هو المؤلف يقول رأيه في الامتيازات الاجنبية « ١٠ من يناير سنة ١٩٣٠ ان هذه الامتيازات الاجنبية امتهان لكرامتنا في بلادنا وعقبة كأداء في سبيل كل تقدم واصلاح ووسيلة دائمة لتدخل الدول الاجنبية في الشؤون المصرية وذريعة شائنة تمكن المجرمين وخربي الذمة من الاجانب ان يتهربوا من سلطة القانون »(٢٦) ان رأي المؤلف في الامتيازات الاجنبية التي انتهت وانتهت اثارها من سنوات طويلة لم نعرف عنه شيئا الا الان .. وهذه الثورة المتأججة ظل خبرها في دفتر اليوميات حتى هذه اللحظة .. والمؤلف كان صادقا فلم يحدثنا بانه قال هذا الكلام في مجتمع عام وانما كانت ثورته امام كراسة في حجرة مغلقة .. كانت ثورة « جوانية » .. ثورة من الداخل لا يعلم بها احد .. وهي طبعا غير ثورة الحدادين والنجارين الذين كان ينزعج من ضوضائهم المؤلف.. هذه هي بذور الفلسفة الجوانية : لقد سب الانجليز وانتقم منهم ولكن بينه وبين نفسه .. ان المؤلف معجب تماما بالسيد « دون كيشوت » فهو يقول عنه « ولعل ما استهواني في هذه القصة انني وجدتها تصور تباينا مشهورا في الحياة بين عقليتين او بين حزبين من الناس : احداهما عقلية تؤمن بالفكرة وتحيا في عالم مثالي من صنعها والثانية لا تصدق الا ما يسمونه بالواقع الملموس ولا تتصرف الا وفقا للمواضعات المألوفة .. العقلية الاولى يمثلها السيد دون كيشوت ذلك الفارس المغوار التائه في بيداء الخيال يمتطي صهوة فرسه المعجوز وينازل طواحين الهواء .. والعقلية الثانية ويمثلها خادم السيد .. » (٢٧) ولكن هذا وحده ليس السبب فكل الناس تعجبهم الى الان شخصية دون كيشوت او بالاحرى يعجبهم اصرار سرفنتس على تتبع هذه الشخصية التافهة التي اصبحت تضرب مثلا لكل ما هو سلبي وللبطولة الزائفة .. ولكن السبب فيما نرى هو اتخاذ هذه الشخصية مثلا اعلى

(٢٠) مدخل الى الفلسفة ص ٩ . (٢١) الجوانية ص ١٢٠ .

(٢٢) الجوانية ص ٣١ . (٢٣) الجوانية ص ٣٢ . (٢٤) الجوانية ص ٨١ . (٢٥) ص ٩٣ . (٢٦) ص ٩٨ . (٢٧) ص ٤٢ .

والايمان بوسائلها العرجاء في اصلاح العالم والهتاف معها بان الشر الذي يجب استئصاله مختبىء هنا في طواحين الهواء .

على انه ربما كان من الافضل ان ظلت هذه اليوميات مطوية الى الان .. والا فماذا كان يحدث لو نشر المؤلف على مواطنيه وقتها هذه القصة : حين كان في المدرسة الثانوية طلب منه مدرس اللغة الانجليزية ان يكتب موضوع انشاء عن عظيم من عظماء العالم فاختار « غاندي » .. ولكن الاستاذ غضب وابى ان يضع درجات لهذا الموضوع .. واعطى المؤلف كراسة الانشاء لاستاذ انجليزي اخر « فاعادها رحمه الله ومعها رسالة مطولة كلها تعبير عن الاعجاب والتقدير لطالب مصري صغير يكتب ما كتب عن الزعيم الهندي الكبير »(٢٨) .. لعله من الخير ان ظلت هذه القصة في كراسة اليوميات الى الان .. فالواقع انها تعلمنا بعض الانجليز وانها هي على العكس من ذلك تطالبنا بحبهم واحترامهم ما داموا يملكون هذا القدر الكبير من الموضوعية والانصاف .

٤ ـ السؤال والاجابة :

ويحق لنا الان ان ننظر هل اجاب هذا الكتاب حقا على السؤال الملح الذي تفرضه ظروف هذه الفترة : ما هي الفلسفة التي تحتاج اليها هذه الايام ؟ الواقع ان الكتاب اجاب على هذا السؤال .. ولكنها الاجابة التي بينا خداعها وزيفها .. الاجابة التي تقول « ان الرؤية الصحيحة لا تقف عند الابصار بالعين لان الحواس خداعة وانما رؤية الروح والبصر بصر العقل »(٢٩) وما يترتب على هذه الاجابة من الدعوة الى التامل السلبي والشطحات الصوفية والاتجاه الى الداخل والباطن والجواني لان ما نراه بأعيننا وما نلمسه بأيدينا مزيف وغير حقيقي وبراني ..

ان هذه نظرة متخلفة تماما .. فاذا كان هذا النوع من التفكير قد ظهر في فترات معينة من التاريخ فقد كان لهذا سببه الواضح : الضعف والجهل والتخلف واستبداد الحكام .. اما الان ونحن نبني مجتمعا على اسس علمية مستوحاة من الواقع ومعطياته وملتصقة بأرضه ومستفيدة من تجاربه وخبراته .. فان الفيلسوف والمفكر حين يفعل ذلك وحين ينعزل ويهرب ليس هذا وحده وانما يمجد لنا هذا السلوك السلبي .. حين يفعل ذلك ينسى وظيفته الاساسية التي توجب عليه « ان يهبط من سماء التجريد الميتافيزيقي الى ارض الواقع الاجتماعي لكي يجعل منها عملية تحرر يشارك المرء عن طريقها في حركة التاريخ » (٣٠) .

ليست هذه اذن هي الفلسفة التي نبحث عنها .. وليست هذه هي الافكار التي تدفع ركب حياتنا الى التقدم والتطور والخلق .. وليس البكاء من اجل الافكار القديمة والايام القديمة مما نقبله من الاساتذة والمتخصصين لان على هؤلاء واجبا كبيرا هو ان يشاركوا في حركة التاريخ لا ان يعرقلوا سيرها .. وهم يعرفون ان التفكير المجرد لا قيمة له ولا يوصل الى شيء وان الهدف من التفكير ليس فكرة نبيلة نتأملها بل التفكير يجب ان يكون من اجل الفعل .. والفعل هو الذي يهدينا الى الحقيقة .

وبعد .. لقد تنبأ المؤلف في سنة ١٩٣٠ بان التفكير الفلسفي سينقلب قبل نصف قرن الى تفكير ميتافيزيقي جواني واننا سنجد من الامريكان زهادا ومتصوفين(٣١) ولكن نصف القرن يوشك ان ينقضي ولم يصل الينا ان الامريكان او اي شعب او جماعة من الناس قد اتخذوا الزهد والتصوف طريقا للتفكير والحياة والعمل .. الم يكن من الاصوب اذن ـ ما دام التنبؤ خاطئا ـ ان يدعو المؤلف الى فلسفة تحترم العمل وتؤمن به بدل الفلسفة الجوانية الصعبة التي تطالبنا بان نغلق عيوننا لنبصر بعيون القلب ؟

القاهرة — **عبد الله خيرت**

(٢٨) ص ٣٩ . (٢٩) ص ٢٠٦ . (٣٠) مجلة المجلة العدد ٩١ د. زكريا ابرهيم . (٣١) الجوانية ص ٢٠٣ .

شعر

الى بلند الحيدري

***

تظل رسائله بانتظاري
مخبأة عن عيون الصغار
تظل على المنضده
تسوح ، ومن شرفة موصده
وعبر الشقوق ، تغازلني في النهار
وفي الليل في الظلمة البارده
تهاوى على الثلج ، اكليل نار
والمسها ، فاشم السخونة في الاحرف المجهده
والمح عينيه ، عبر الجدار
تبوحان ، والدمع في المحبره
يناغي حفيف السطور ،
كما تقفز القبره
الى قطرة الماء ، في ليلة مقمره
كما يرحل الصوت ،
خلف الستار

* * *

وحيث تضيع المرافىء عبر البحار
وتنأى به الجزر الضائعه
وتنأى وتنأى
فمن ذا يبدل بي اضلعه
ومن ذا يمد لنا الاشرعه
وفي اي ارض ، وطعم الدوار
يغيب رائحة الشوك في ارضنا ، والعرار
ومن ذا يعيد لنا الاقنعه
نجوس ، خلال تجاعيدها ، ارضنا الرائعه
واعيننا سمرت يا اله الدمار
واوجهنا متعبات تنازع ، والقلب عار
فمن ذا يدل علينا ، اذا نحن عدنا عيون الصغار
لتملأ اجفاننا الجائعه
ومن ذا يدل خطانا سوى الوهم في خطوة راجعه
والا العظام ، مبعثرة في القفار
وغير الركام الذي تترك الزوبعه ...

بغداد — **رشدي العامل**